الملتقى الوطني: دور العلماء والمؤسسات التعليمية في بناء الحضارة الإسلامية خلال الفترة الوسيطة

يوم 3 ديسمبر 2025م مخبر التاريخ للأبحاث والدراسات المغاربية كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة 8 ماي 1945 قالمة

The Role of Scholars and Educational Institutions in Building Islamic Civilization during the Medieval Period

December 3, 2025

History Research Laboratory for Maghrebi Studies
Faculty of Humanities and Social Sciences
University of 8 May 1945, Guelma

عنوان المداخلة:

إسهامات المفسرين في ترسيخ القيم الحضارية في الفكر الإسلامي خلال الفترة الوسيطة

عنوان المداخلة بالإنجليزية:

The Role of Medieval Qur'anic Exegetes in Shaping and Strengthening Civilizational Values within Islamic Thought

الملخص:

يتناول هذا البحث تطوّر حركة التفسير في الفترة الوسيطة بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، مبينا أنها كانت مرحلة نضج علمي وتنوع منهجي أسهم في بلورة رؤية حضارية لمعاني القرآن الكريم. كما يستعرض القيم الحضارية الكبرى في القرآن، ويحلل سبل حضورها في الخطاب التفسيري. وقد ركز البحث على ثلاث قيم محورية هي: العدل، والتكافل الاجتماعي، والعلم، لما لها من أثر مباشر في بناء المجتمع والدولة. وخلصت الدراسة إلى أنّ مفسري الفترة الوسيطة لم يكونوا مجرد شارحين لمعاني القرآن الكريم، بل كانوا علماء ومربين أسهموا في ترسيخ وعي حضاري متكامل عبر مؤلفاتهم ومؤسسات التعليم في عصرهم، وأنّ تلك القيم ما تزال صالحة للتفعيل في الواقع المعاصر لتعزيز النهضة الفكرية والاجتماعية.

Abstract:

This study explores the evolution of Qur’anic exegesis during the medieval Islamic period (7th–9th centuries AH), demonstrating that it was a formative era characterized by intellectual maturity and methodological expansion that helped shape a broader civilizational understanding of the meanings of the Qur’an. The research further identifies the core civilizational values emphasized in the Qur’an and examines the ways in which they were reflected within exegetical discourse. Special attention is given to three foundational values—justice, social solidarity, and knowledge—due to their central role in constructing a sound social and political order. The study concludes that medieval Qur’anic exegetes functioned not merely as interpreters of scripture, but as influential scholars and educators who played a pivotal role in embedding these values within Islamic thought through their teaching and scholarly works. It also affirms the continued relevance of these values as guiding principles for contemporary intellectual and societal renewal

مقدمة:

يمثل علم التفسير أحد أبرز المجالات العلمية التي ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية وترسيخ قيمها، وفي الفترة الممتدة بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، بلغ علم التفسير مرحلة من النضج والاكتمال جعلته أحد أهم المحركات الفكرية التي أسهمت في تشكيل الوعي الحضاري للأمة، فقد كان المفسرون خلال الفترة الوسيطة روادا في بلورة رؤية قرآنية متكاملة للحياة الإنسانية، تجمع بين العقل والوحي، والعلم والإيمان، والنظر والعمل؛ واستطاعوا من خلال مناهجهم المتنوعة أن يستخرجوا من آيات القرآن الكريم قيما حضارية كبرى تدعو إلى البناء والإصلاح، وترسّخ مبادئ العدل والعلم والتعايش والإعمار.

وعلى الرغم من هذه الجهود الحثيثة، فإنّ إسهام علم التفسير في صياغة الوعي الحضاري خلال الفترة الوسيطة لم ينل حقه من الدراسة والبحث، ومن ثمّ جاءت هذه المداخلة لتطرح إشكالية رئيسية وهي:

كيف أسهم المفسرون خلال الفترة الوسيطة في ترسيخ القيم الحضارية في المجتمع الإسلامي من خلال بيانهم لمعاني آيات القرآن الكريم؟

ويهدف هذا البحث إلى إبراز إسهامات كبار المفسرين في تلك الفترة، أمثال الرازي والقرطبي والبيضاوي وابن كثير وأبي حيان، في ترسيخ القيم الحضارية التي شكّلت أساس النهضة الإسلامية.

فقد كان الفكر التفسيري في العصر الوسيط مشروعا حضاريا متكاملا يتجاوز حدود الشرح والبيان إلى الإسهام الفعلي في صياغة هوية الأمة، وبناء تصورها المتوازن للعالم والإنسان والحياة؛ وهو مشروع لا يقل أثرا عن الدور الذي اضطلعت به المؤسسات العلمية والوقفية التي بلغت في تلك المرحلة أوج نشاطها.

المبحث الأول: الدراسة النظرية.

يمثّل فهم تطوّر حركة التفسير في الفترة بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، واستجلاء القيم الحضارية الكبرى في القرآن الكريم، مدخلا أساسيا لفهم الدور الذي أدّاه المفسرون في تلك الفترة؛ فقد كان التفسير آنذاك مجالا علميا خصبا تفاعلت فيه مختلف المعارف العقدية واللغوية والاجتماعية، وأسهم في صياغة الرؤية الحضارية للأمة؛ ومن هنا تأتي أهمية الجمع بين البعد التاريخي للتفسير والبعد القيمي للقرآن الكريم، لتكوين إطار نظري يمهّد لتتبع جهود المفسرين في ترسيخ تلك القيم في الفكر الإسلامي.

المطلب الأول: تطور حركة التفسير خلال الفترة الوسيطة.

مثّلت الفترة الوسيطة، الممتدة تقريبا بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، مرحلة فارقة في تاريخ التفسير، اتسمت بتنوع مناهجه واتساع مجالاته وازدهار مراكزه العلمية، فقد شهدت انتقال علم التفسير من طور "البيان اللغوي والرواية" إلى طور "التحليل المنهجي والتركيب العلمي" الذي يجمع بين الرواية والدراية[1].

أولا: نضج المناهج واتّساع الرؤية التفسيرية.

يتّضح من مراجعة أعمال أعلام هذه الفترة أن حركة التفسير بلغت درجة كبيرة من النضج؛ إذ ظهرت شروح موسّعة تجمع بين المأثور والمعقول، وقد أشار السيوطي إلى أن نصيب هذه الحقبة من التأليف التفسيري كان أوسع وأغزر من الفترات التي سبقتها، ففي هذه القرون كثرت التصانيف في التفسير، وتنوعت فيها المناهج بين الإيجاز والإطناب وبين الاعتماد على الأثر أو الاستنباط [2].

وقد برز في هذه المرحلة تفسير ابن كثير (ت 774هـ) الذي مثّل اتجاها نقديا يعتمد على الرواية مع تمحيص الأسانيد، ونجد كذلك فخر الدين الرازي (ت 606هـ) بتفسيره (مفاتيح الغيب) الذي يعدّ منطلقا للتحليل العقلي في التفسير، ومعلما على مزج العلوم الفلسفية والكلامية بالدرس القرآني [3].

هذا التنوع في المناهج يعكس تطورا واضحا في فهم معاني القرآن الكريم، واتساع دائرة التفسير لتشمل مباحث لغوية وكلامية وأصولية واجتماعية.

ثانيا: ازدهار مراكز العلم وانتعاش حركة التأليف.

يشير العلماء إلى أن القرن السابع الهجري وما بعده شهد توسعا كبيرا في مدارس العلم وارتقاء في

---

[1] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص35–36.

[2] ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص476.

[3] ينظر: الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ج1، ص253.

طرائق التدريس، مما انعكس مباشرة على حركة التأليف في التفسير[1].

فقد ازدهرت المدارس النظامية، وانتعشت حلقات العلم في القاهرة ودمشق وقرطبة وفاس، وبرزت الحاجة إلى مؤلفات تفسيرية موسوعية تُعنى بجمع العلوم القرآنية وتبويبها.

ويتجلّى هذا الازدهار في تفسير القرطبي (ت 671هـ) الذي جعل من كتابه "الجامع لأحكام القرآن" مرجعا فقهيا وتفسيريا يجمع بين الرواية والتحليل الفقهي والاجتماعي، ويعكس وعيا حضاريا بمقاصد الشريعة وواقع الناس.

ثالثا: البعد الحضاري في اتجاهات التفسير.

لم يقتصر تطور التفسير في هذه الفترة على المناهج والأساليب، بل شهد اتجاها نحو التفسير الحضاري الذي يربط معاني القرآن الكريم بالواقع الاجتماعي والفكري.

وهكذا أصبح التفسير في الفترة الوسيطة أكثر قدرة على استيعاب الواقع، وأعمق اتصالا بالقيم التي أسهمت في تشكيل البناء الحضاري الإسلامي.

---

[1] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص142.

المطلب الثاني: القيم الحضارية الكبرى في القرآن الكريم.

يمثّل القرآن الكريم المنظومة الأساس للقيم التي وجّهت بناء الحضارة الإسلامية، وقد اهتمت كتب علوم القرآن والمصنفات الجامعة ببيان هذه القيم، وتحديد معانيها، وشرح المقصود منها في ضوء الآيات القرآنية، وتمثّل هذه القيم إطارا عاما يوجّه حياة الإنسان والمجتمع، ومن أبرز هذه القيم:

أولا: قيمة العدل.

يُعدّ العدل القيمة المركزية في البناء القرآني، وقد أكد على ذلك عدد من العلماء، فهو أساس انتظام مصالح العباد وأصل العمران القرآني [1].

ثانيا: قيمة الكرامة الإنسانية.

أسّس القرآن لمبدأ الكرامة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، وقد اعتبر عبد الله دراز هذه الآية أساسا لفلسفة الأخلاق القرآنية[2].

ثالثا: قيمة العلم والمعرفة.

يجعل القرآن العلم شرطا للارتقاء الحضاري، فالتكليف موقوف على العلم كما قال العلماء وهو السبيل إلى السداد والرشد [3].

رابعا: قيمة التكافل الاجتماعي.

يُبرز القرآن التكافل بوصفه نظاما لحفظ توازن المجتمع، وقد أشار ابن عاشور بأن آيات الإنفاق "أساس لتماسك الجماعة"[4].

ومنهم من جعل مقصد الزكاة "دفع ضرر الفقر عن الأمة"[5].

خامسا: قيمة الإصلاح والعمران.

يعتبر القرآن الإصلاح والعمران من المقاصد العليا، وقد أكد العلماء على أن قوله تعالى ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يدل على أن العمران مقصد شرعي أصيل[6].

وصفوت القول في ذلك كله أن القيم القرآنية الكبرى ليست معاني أخلاقية فحسب، بل هي أسس

---

[1] ينظر: القرافي، الفروق، ج1، ص177 / ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج28، ص146/ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص265.

[2] ينظر: دراز، النظام الأخلاقي في القرآن، 102.

[3] ينظر: الشاطبي، الموافقات، ج2، ص276/ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص46.

[4] التحرير والتنوير، ج8، ص108.

[5] ينظر: القرافي، الفروق، ج2، ص33.

[6] ينظر: التحرير والتنوير، ج12، ص40.

حضارية تبني الإنسان وتوجّه المجتمع وتمهّد لدور المفسرين في ترسيخها خلال الفترة الوسيطة.

المبحث الثاني: القيم الحضارية في تفاسير الفترة الوسيطة.

يمثل هذا المبحث محاولة لكشف الأبعاد الحضارية التي حملتها تفاسير الفترة الوسيطة، حيث لم يقتصر المفسرون على بيان معاني القرآن الكريم، بل سعوا إلى إبراز القيم التي يقوم عليها البناء الاجتماعي والفكري للأمة. وقد برز في هذه التفاسير اهتمام خاص بثلاث قيم مركزية :**العدل، والتكافل الاجتماعي، والعلم**، لما لها من أثر مباشر في تشكيل الوعي الإسلامي وتوجيه العمران البشري.

ويهدف هذا المبحث إلى تحليل حضور هذه القيم في التفاسير الكبرى، واستجلاء أساليب المفسرين في ترسيخها وتوجيهها بما يبين دورهم الحضاري في تلك المرحلة.

المطلب الأول: جهود مفسري الفترة الوسيطة في ترسيخ قيمة العدل.

يحتلّ العدل مكانة مركزية في البناء القرآني، وقد تنبّه المفسّرون في الفترة الوسيطة لأهميته في إقامة العمران الإنساني، فعملوا على ترسيخ مفهومه نظريا وعمليا؛ وعند التأمل في تفسير الإمام الرازي(ت 606هـ) نجده يستهلّ حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[النحل: 90] بتقرير رؤية كونية للعدل، يؤكد فيها على أن العدل هو التسوية بين الخلق... وهو أصل في قيام العالم وانتظام أمره [1].

ويكشف هذا القول عن فهم فلسفي وكلامي يجعل العدل نظاما يحكم الكون، لا مجرد قيمة سلوكية. ومن خلال هذا الاقتراب العقلي يرسّخ الرازي مبدأ حضاريا: أن استقامة المجتمع مرهونة باستقامة العلاقات الإنسانية وفق ميزان العدل.

ثم ينتقل الفكر التفسيري إلى المغرب والأندلس، حيث ينظر القرطبي(ت 671هـ) إلى العدل نظرة أكثر مؤسسية، فيوضح أن العدل أساس الأحكام، وبه تقوم الدول، وهو من محاسن الشريعة [2].

وفي هذا القول تتجلى الطبيعة الفقهية العملية لمدرسة الأندلس، التي رأت أنّ العدل ليس مجرد فضيلة فردية، بل هو قاعدة لإدارة الحكم وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم؛ ويُفهم من عبارته أن الدول لا تستقيم إلا بمؤسسات عادلة، مما يعكس فهما سياسيا ناضجا لمعاني القرآن الكريم.

وفي سياق متصل، يبرز تفسير البيضاوي (ت 685هـ) الذي يعالج العدل من زاوية تربوية أخلاقية، إذ يرى أنّ العدل "إصلاح الظاهر والباطن، إذ به ينتظم أمر المعاش والمعاد"[3] وهذا التحليل يربط بين

---

[1] ينظر: مفاتيح الغيب، ج20، ص130

[2] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص247,

[3] ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص112.

العدل وبين تزكية النفس، مؤسسا لرؤية تجعل الإصلاح الاجتماعي انعكاسا لإصلاح الضمير.

وعندما نصل إلى ابن كثير (ت 774هـ) تظهر نزعة واقعية عملية واضحة، إذ يرى أنّ العدل واجب على الولاة والرعية، وهو قوام الأمور وصلاح الأحوال [1].

ويكشف هذا التصور عن إدراك المفسر لتحديات عصره، حيث ركّز على ضرورة تطبيق العدل في القضاء والإدارة والولايات، وهو ما ينسجم مع اهتمام المدرسة الدمشقية بالمنظور العملي للتشريع.

ومن خلال سياق هذه الأقوال تتشكّل صورة متكاملة: فالرازي يعالج العدل من زاوية بنية الوجود، والقرطبي من زاوية نظام الدولة، والبيضاوي من زاوية بناء الضمير، وابن كثير من زاوية الممارسة الواقعية. وهكذا أسهم هؤلاء العلماء، من خلال مدارسهم ومناهجهم، في بناء وعي حضاري متكامل يجعل العدل أساس النهضة السياسية والاجتماعية.

---

[1] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص431.

المطلب الثاني: جهود مفسري الفترة الوسيطة في ترسيخ قيمة التكافل الاجتماعي.

تحتلّ قيمة التكافل موقعا بالغ الأهمية في البناء القرآني، وقد أدرك المفسرون في العصر الوسيط أنّ المجتمع لا يستقيم إلا بروابط التضامن بين أفراده. ويبدأ الرازي بتحليل البعد الأخلاقي للتكافل، إذ يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾[الحشر: 9]: "الإيثار نهاية درجات السخاء، وهو دليل على صفاء النفس وكمال الإيمان"[1].

ويكشف هذا القول أنّ الرازي يربط التكافل بصفاء القلب وترقية الإيمان، مما يعكس منهجا تربويا يركّز على الجانب النفسي والأخلاقي، وهو ما يميز المدرسة الشرقية التي كانت تزاوج بين العقل والتزكية.

أمّا القرطبي، فينتقل بالقيمة إلى بُعد اقتصادي اجتماعي واضح، فهو يوضح في تفسير آيات الزكاة أن الله جعل الزكاة لسدّ خلة الفقراء، ولتكون الأموال دائرة بين أهلها [2].

ومن خلال هذا النصّ يظهر بوضوح وعي القرطبي بدور التكافل في معالجة الفقر والتفاوت الاجتماعي. إنه لا ينظر إلى الإنفاق بوصفه عبادة فردية فقط، بل بوصفه نظاما اقتصاديا مانعا لاختلال التوازن الطبقي، وهي رؤية تتقاطع مع حاجات المجتمع الأندلسي في ذلك العصر.

وعندما نصل إلى ابن كثير، نلمس نزعة تربوية تاريخية، إذ يذكر نماذج من سلوك الصحابة كانوا يتعاهد بعضهم بعضا، ويواسون من قلّ ماله... [3].

وهو بذلك يستخدم السيرة الأولى كوسيلة تعليمية لترسيخ قيمة التكافل في ذهن القارئ والمتعلم، فيربط معاني القرآن بنموذج عملي معيش.

إنّ هذه الاتجاهات المختلفة تكشف عن تكامل في الجهود أسهم في صياغة مفهوم حضاري شامل للتكافل، وهو ما انعكس في المؤسسات التعليمية والوقفية التي نشطت خلال تلك الفترة.

---

[1] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج29، ص78.

[2] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص72.

[3] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، 342.

المطلب الثالث: جهود مفسري الفترة الوسيطة في ترسيخ قيمة العلم والمعرفة.

يحظى العلم بمكانة مركزية في القرآن الكريم، وقد بذل المفسرون في العصر الوسيط جهدا كبيرا في إبراز منزلته، إدراكاً منهم أنّ العلم هو الأساس الذي تُبنى به الحضارة الإسلامية؛ وعند النظر في تفسير الرازي نجده يقرر أنّ العلم نور يُهتدى به... ولا يُتصوّر تكليف بلا معرفة [1] عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9].

وهذا القول يعكس خلفيته الكلامية والفلسفية التي تجعل العلم شرطا للمسؤولية الأخلاقية، مما يعكس الطبيعة العقلية للمؤسسات التعليمية في خراسان والريّ.

ويقدّم القرطبي رؤية عملية تربوية، موضحا أن العلم أصل لكل خير، وبه تعرف الطاعات والمعاملات [2]، فهو بذلك يجعل العلم أساسا لبناء الإنسان المكلف، ويبرز الدور التعليمي للمفسر في تكوين طلاب الفقه والتفسير.

وحين نصل إلى ابن كثير تتضح مكانة العلماء كحملة رسالة، مؤكدا على أن العلماء هم ورثة الأنبياء، ولا يقوم الدين إلا بعلمهم وتعليمهم [3].

ويبرز هذا القول الجانب المؤسسي للعلم، فالمفسر لا ينظر إلى العلم مجرد فضيلة فردية، بل ينظر إليه بوصفه وظيفة مجتمعية تقوم بها طبقة العلماء، وهي رؤية تعكس مكانة المدارس النظامية والشافعية في دمشق.

وهكذا نرى أن الرازي ركّز على العلم من زاوية العقل والتكليف، والقرطبي من زاوية العمل والعبادة، وابن كثير من زاوية الدور المؤسسي للعلماء. وهذه المقاربات المتنوعة تشكّل معا منظومة حضارية جعلت العلم محور النهضة الإسلامية في الفترة الوسيطة.

---

[1] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص85.

[2] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، ص11.

[3] ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص190.

خاتمة:

أسفرت هذه الدراسة عن جملة من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

- تبيّن أنّ الفترة الوسيطة كانت مرحلة نضج وازدهار لعلم التفسير من حيث تنوّع مناهجه واتساع آفاقه.

-اتضح أن القرآن الكريم أسّس لمنظومة قيم حضارية كبرى أسهمت في رسم ملامح المجتمع الإسلامي.

- برز أنّ قيم العدل والتكافل والعلم تمثّل ركائز محورية في البناء الحضاري الإسلامي.

- ظهر أنّ المفسرين كان لهم دور جوهري في ترسيخ هذه القيم من خلال تفسيرهم وتعليمهم وإنتاجهم العلمي.

- أكدت الدراسة تكامل جهود المفسّرين إبراز البعد الحضاري للقرآن، كلٌّ بحسب منهجه واتجاهه العلمي.

- أثبت البحث أنّ التفسير ظلّ علما وظيفيا مؤثرا في بناء الوعي الإسلامي وصناعة الحضارة.

التوصيات:

- ضرورة تعزيز حضور القيم القرآنية الكبرى—ولا سيما العدل والتكافل والعلم—في المناهج التعليمية الحديثة، باعتبارها ركائز لبناء الوعي الحضاري.

- العناية بإحياء التراث التفسيري الوسيط ودراسته من منظور حضاري، مع إدماج محتواه في البرامج الجامعية المتخصصة.

-تشجيع البحوث العلمية التي تتناول دور العلماء في تاريخ الحضارة الإسلامية، وربط ذلك بواقع المؤسسات التعليمية المعاصرة.

- العمل على تفعيل القيم الحضارية المستفادة من التفسير في الواقع الاجتماعي، وفي السياسات التربوية والثقافية.

- الدعوة إلى بناء جيل جديد من الباحثين يجمع بين المعرفة التفسيرية والوعي الحضاري، على خطى العلماء الأوائل.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**

- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، الطبعة الأولى، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض – السعودية، 1998م.

- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، 1998م.

-الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، تحقيق دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، 1990م.

-السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، 1974م.

- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة – مصر، 1964م.

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت – لبنان، 1988م.

-الذهبي، التفسير والمفسرون، الطبعة الرابعة، دار الكتب الحديثة، القاهرة – مصر، 1976م.